الذئاب

عبد الاله عبدالرزاق

لقد حدث الأمر نوّاً ولـوقْع حـدوثه المفـاجيء فعل الـذهول الذي يُفقد الرؤية السليمة في تحليل الأمر أو البحث عن الجواب المقنع.

لقد خرج الشيخ حسن من بيته الى الطريق الذي كان يشطر القرية بمعية اثنين من أصحابه في ظهيرة قائظة..

كانت الريح الخفيفة تحمـل رائحة المـاء المرتبكـة بين الجـرف والصخر، مثلما كانت تحمل صوته المتلاشي على الصخر والحصى والكتل الرملية. وكانت الشمس تفرش اشعتها المتشظية والمغبرّة، وتكاد تفضح الزوايا السرية التي احتمت بـين المداخـل وجذوع الشجـر والصخر. لقـد بدتْ أشعـة الشمس وكأنها تـطرد كـل الظلال المتوقعة والمنفلتة من وراء الأبواب المقفلة.

ثمّـة كلب يتسلّل من زقاق الى زقـاق آخر محتميـاً بالسكـون وبمزقِ الظلال الباقية قبل أن تزحف اليهـا أشعة الشمس. تقـع عينا الشيخ حسن على الكلب، يودّ أن يقول شيئا لصاحبيه. كان الكلب يتحـرّك بقلق واضـح، اذنـاه تتحـرّكـان وتتحسّسـانِ وتبحثان. أوشك الشيـخ حسن ان يقول: «هـذا الكلب..» لم يكن مهيـأً كما يبـدو لأن يقول ذلـك فعلاً، أمسـك عليه نفسـه ومضىٰ يسـاوق خـطواتـه مـع خـطوات صـاحبيـه.. يختفي الكلب...

- : «تصوّرا أن ابنتي طلبتْ مني الاّ أخرج اليوم. ظنّت أنيّ لستُ علىٰ ما يرام.. تصوّرا».

سعل بحدّة، وقال كأنه يضع نفسَه كما يراها على حقيقتها بين ايدي صاحبيه:

- «أمن المعقول هذا؟. لكنها كانت تضمر شيئاً بالتأكيد. وإلاّ لما قالت ذلك. قلتُ لها: مـا الأمر؟ قـالت وهي تتضرّع: أرجوك لا تخرج اليوم. أحلامي لا تكذبّني..

ولكن الاحلام شيء والحقيقة شيء.

سمع الشيخ هرير كلب يجيء من ورائه، يلتفت مدهوشاً، لا يرىٰ شيئاً. يودّع صاحبيه عند شجرة زيتونة عجوز.

في اللحظة التي استدار فيهـا ليدلف عَبْـرَ زقاق آخـر سقطت حزمة من شعاع الشمس في عينيه. اهتزت الرؤية امامه، حاول أن يحفظ توازنه، تـأنّىٰ قليلاً ثم وقف. في اللحـظة هذه تسلّلَتْ فوّهة بندقية عَبْرَ جدار مجهول، كانت الفوّهة تتحرّك ببطء شديد لقد كانت تبحث عن هدفها على الرغم من أنها كانت تثق - كما يبدو - من أنها ستقع على هذا الهدف بعد قليل. لقد تبدّى الأمر وكأنّه مُخطّط منذ البدء، وأنَّ المسألة مسألة وقت فحسب.

كان جسد الشيخ مكشوفـاً إزاء الفوّهـة، متوحّـداً معها... توقّف الاثنان: الفوّهة والجسد القاحل الذي بدا وكأنه ميّت منذ الآن.

سنح كلب مُسرع عن يمين الشيخ، قبـل أن تصدر نـأمة مـا منه، انفجر المكـان بدويّ الـرصاصـة. كان للرصـاصة صـدى فاجع. ارتطم في الجدران وهزّ الشجر واستفزَّ العصافير. وقطع الأنفاس.

انهار الشيخ حسن كما لو أنّه يشعر بإعياء. كانت سقطته بطيئة ومحترسة. (قيل انَّ الأمر مجرّد رصاصة طائشة، ربما كانت تبحث عن ضالتها في كلب.. أو لصّ).

* * *

صباح هذا اليوم خرجت القرية لتشييع جثمان القتيل. كانت الشمس مغبرّة وكاسفة. وكان ثمّة هواء شـديد يضـرب الشجر والثيـاب بنزق ويجعّـد الميـاه ويحني الأغصـان. وكـانت الأوكـار والأعشاش تمتلىء بالعصافير والطيور.

وخلال ساعة أو بعض ساعـة خلت القريـة من ساكنيهـا.. أغلقت الأبـواب وأسدلت السـتائـر وانكمشت الأصـوات حتى تضـاءلت، وتهيّأ للريـح الشـديـدة أن تتسلّل الى دغـل القصب وتمسح المياه وتقتحم الموج.. كانت الريح تستبيح خلوّ القرية من أهلها، مثلما بدأت تستبيحها أعداد من الكلاب.. كانت الريح

وحدها هنا.. بين الأزقة المحترقة ودغل القصب المهتزّ.. وحدها مع الأبواب نصف المغلقة أو مع الأبواب التي لم تغلق بعد.

* * *

صرخت «نشمية» واهتزّت مرتعبة. فتحت عينيها في ضوء النهار الساطع. وكأنَّ هاجساً معذباً يمسك عليها نفسها. ركضت إلى الباب. سمعت صوتاً مدوياً أعقبته صرخة ثم وقع خطىً ونباح كلاب قريبة. كادت تهمس. اختنقت بهمسها. قالت له: «لا تخرج هذا اليوم. لستَ على ما يرام». حدّق في عينيها وابتسم. «أمن المعقول هذا؟».

اقتربت منه، شمّت في ثيابه رائحة دم فائر يلوّثه تراب وعرق. ودّت لو تقول له الحقيقة. جهدت أن تعدّل في لهجتها. قالت: «أحلامي لا تكذّبني.. الحلم خوف وان اختلفت تفاصيله». يقول لها في هدوء: «ولكن الحقيقة شيء والحلم شيء آخر».

وسمعت شيئاً يسقط خلفها. التفتت الى الوراء، وضعت المنجل على عنقها، لامست شفرته الحادّة لحمها الدافىء. اختضّتْ. لم تعد صرختها مشروعاً مؤجلاً، لقد انفلتت منها بمستوى قلقها وخوفها وانهيارها.. سقطت الى الأرض ويداها على وجهها وراحت تجهش بالبكاء.

* * *

حين عاد المشيّعون كانت «نشمية» آخر مَن وصل. استعادت أزقة القرية حركتها البطيئة. وجدتْ نفسها في المكان ذاته عند قاعدة الزيتونة العجوز. كانت تخفي في طيّات ثيابها منجلها.

هنا سقط.. على عشب جذع الزيتونة. ومن هنا كانت الرصاصة.. ثمّة جدار وجدار وسطح.. وبضع عيون خائفة تتوارىٰ خلف الستائر بعد أن نظرت الى «نشمية» بريبة واحتراس.

وقت غير قليل يمضي.. يتواصل اليوم بالآخر و«نشمية» هنا، تجيء حيث تشاء، تختار زمنها حيث تشاء كأنها تنتظر قاتل أبيها، يتعلّق المنجل في ثيابها وتنتظر. كانت واثقة أنها ستجد شيئاً.. كلمة طائرة، نبرة منزلقة من حنجرة مخطئة.. تلويحة صغيرة، شبح إنسان يشخص أمامها ليقول لها: «هوذا.. الحقِيه». كان يقينها حقيقة لا تقبل المراجعة، وأملاً أشبه بالعناد، يتّضح في تقاطيع وجهها الصارم الذي شحبت فيه ملامحه الحلوة، وركن الى التوحش والحقد، مثلما كان يتّضح في طريقة نظرتها إلى ما يحيطها.. نظرة ميّتة قاحلة ومستقرة مثل استقرار جسدها هنا.. واقفة أو جالسة متكئة عند جذع الزيتونة.

وقت طويل يمضي.. يتواصل اليوم بالآخر و«نشمية» لم تعد مثلما كانت من قبل. فها هي تقف بادية الإعياء. لقد هبطت كتفاها ومالت عنقها الى الأمام وتبدّلت تقاطيع وجهها الصارم وجنحت نحو اللين والتسليم وإلى ما يُشبه الخنوع غير المسُوّغ..

لقد بدا الأمر وكأن «نشمية» كانت تمارس طقساً هي مُكْرَهة على ممارسته. ولكنَّ هذا الطقس بدأ منذ الآن يفقد حرارته ومتعته وشيئاً من تفاصيله ربما بسبب تكراره وتواصلِهِ خُيِّل الى الناس أن «نشمية» قد أصيبت بمسّ من الجنون فعلاً. ولكن لم يجرؤ أحدٌ على أنْ يقترب منها.. كانوا يعرفون مُسبّقاً أنَّ هذا الطقس محكوم بالوقت، وأنّ بضع دقائق قد تمضي ثم لا يلبثون أن يجدوها تنسحب ببطء متّجهة إلى بيتها..

وشيئاً فشيئاً زاد استخفاف الناس بها فكأنّ قصر طقسها اليومي هو السبب..

ربما كان يدفعها التعب والإرهاق واليأس الى البكاء، حتىٰ يخيّل لمن يسمع بكاءها انها ستنتهي منذ الآن..

لم يعد الناس يتحدّثون عن «نشمية»، لقد غدت في ذاكرتهم أشبه بحلم منطفىء، ما عادوا يتذكرون منه شيئاً. كانت «نشمية» محض امرأة مهملة تمارس طقسها، لا تثير فيهم شيئاً سوىٰ الإهمال والضيق احياناً.

* * *

عقب ظهيرة هذا اليوم، خلت الأزقة والمداخل من حركة الناس، وهدأت الأصوات ولمّا تنكسر حدة أشعة الشمس، فثمة زجاجات وعلب صفيحية وأوراق أشجار عريضة تسطع كلها بفعل انعكاس أشعة الشمس.. ورؤوس أشجار بعيدة تسودّ وهي تسوّر الأفق.. وبقع مائية خرافية تنزلق على سطوح ناعمة تلوح من بعيد.

وسكن الهواء..

كان هناك شيء يتحرّك يستبيح طقس السكون المترهّل.. هجسَتْه «نشمية» قبل أن تراه.. تراءىٰ اليها أنّها تشمُّ في الريح الساكنة والملتهبة انفاس آدميّ.. لم يكن هناك خرق فاضح في مدىٰ رؤيتها. فكل شيء في مكانه مستسلم للسكون والحرارة والخدر.

همحمت بسرعة. كادت تستدير. تمالكَتْ نفسها. ينبغي الاّ تجفل، أن تظلَّ في وقفتها هذه. إنَّ أقلَّ حركة وفي أيّ اتجاه كفيلة بأن تجعلها تتلقّىٰ ما لم تحتسب، فالثبات في المكان والهدوء سيجعلها قادرة على أن تكتشف ما يحدث، وبالتالي سيجعلها

قادرة ايضاً على الحسْم غير المؤجّل.

هـاجمتها دفقة هـواء مفاجئـة. تماسكت. شمّت فيهـا رائحة تراب ساخن ورائحة عشب وغبار طلْع ينفلت من نخلة، ورائحة ماء في إغريض طلْعة نخلة... ماء من الطلْع.. ماء من قدّاح شجرة يتسرّب اليها مع دفقة الهواء فيشملها حتىٰ الجذور..

... خيّل اليها في لحظة قاحلة أنها فقدت شيئاً من تماسكها ووعيها.. كانت في دغل من الطلع والقدّاح والرِّيِّ السلسل.. كان صدرها يعلو ويهبط وهو يفتح مثل فجوة طينية غادرتْها المياه الآن.. وها هي تتهيّأ لاستقبال موجة جديدة..

ـ سمعت حشرجة واهنة قربها، كانت الحشرجة واضحة في سمعها الآن، بحيث أيقظتها تماماً ممّا هي فيه. هزّت رأسها بقوّة كأنها تطرد ما ظنّته حلماً..

والآن... ها هي ترتـطم بحافـة كتفه.. كـان بمواجهتهـا، محاولاً الامساك بها ووجهه ملتصق بعنقها تشعر بلعـابه السـاخن يُلهب عنقها وصدرها. تحاول تخليص نفسها لتستطيـع الإمساك بمنجلها، لكنه لا يمنحها مثل هذه الخُطوة الحاسمة.

... كانت تسمع ما يشبه الأبواب تنفتح وتنغلق، وثمّة أشياء تُسحب وصدى خطوات تتحرّك. كان يقينها الذي ما يزال يتألق يدلّها على أنّ نجدةً مـا ستجيء بعد قليـل. ثمة صـراخ وتمزيق وطعن في الريح ونهش في لحم متفجّـر وجلبة شـديدة تتحكّم في كل شيء.. أيصدرَ كل ذلك منهما؟ أم من هؤلاء الذين غـادروا الأبواب والأزقة وجاؤوا اليهما؟

أُشـرع المنجـل بينهـما.. كـانت شفـرتـه الـلامعـة خـارج الجسـدين.. وببطء شديـد بدأت تتحـرّك الشفرة داخـل عتمة الجسدين منقادة الى دفء اللحم المُستفزّ..

تنفـذ الشفـرة في اللحم بـاردةً مثـل دفقـة ريـح عـلى عنق معروقة.. سقطتْ.. سقط....

اختلج أحدهما. سكن الآخر.. انطفأا معا.

هبط الرجل عنها، أحسك بالمنجل الدامي، أخفاه بين ثيابه، لم يكن يبدو عليه أنّه مرتبك أو خائف. كان يلهث فحسب. وقد تمزّقتْ ثيابُهُ وتبقّعتْ ببقع صغيرة من الدم. استطاع بعد قليل أن يتسلّل منسحباً.. وتوارى بحركة لا تخلو من هدوء.

* * *

دوّمت ريـح من جـديـد، وهبط الغسق مـن وراء رؤوس الأشجـار والنخيل التي بـدأت تتدكّن بـدكنة شـاحبة.. كـانت العتمة الآن تتنفس داخل الأشياء بسريّة تامّـة، بحيث لم يمـضِ وقت طويل حتىٰ تعلّقت نجمة شاحبة في سماء عريضة وقاحلة ممّا عزّز اليقين بأنّ المساء يجيء الآن بشكل مبكّر ومفاجيء.

كانت جثتها ما تزال في مكانها تمسحها ريح المساء وتُلقي عليها رذاذاً من العتمة.

خـلال وقت قصير كـان هناك غبـار يتطايـر، وكلاب تـرفـع رؤوسها الساكنة عن أذرعها وتُشرع آذانها ومِن ثمَّ تنهض.

كانت ثمّة عصافير تنحشر عنـوةً داخل أعشـاشها وحيـوانات أخرى بدأت تتحرّك باضطراب، وطفقت تصدر أصواتاً لا تخلو من غرابة. وكلما ازداد مضيّ الـوقت اشتدّت حـركة الحيـوانات وارتفعت اصواتها واختلطت. وقـويت الريـح المحمّلة بالغبـار. وبدأت أصوات غريبة تتفكّـك وتتمايـز عن أصوات الحيـوانات وتعلو عليهـا وتتوحّـد في فضاء بـدأ يضيق شيئـاً فشيئـاً. كـانت الأصوات الغريبة تقترب من داخل القرية بحيث لم يعد بمقـدور أحد إلّا أن يُنكر ما سمع. تأكّد للجميع أنّ ما يسمعونه إنما هو عواء ذئاب حقيقية بدأت تدخل القرية..

نَبَحَتِ الكـلابُ، وتسلّلتْ بضـع أقـدام حـاولت أن تغـادر الأبواب، لكنها لم تتجاوز هذا المكان قَطّ.

كان عواء الذئاب يقترب بشكل صاعق...

ولكنَّ الغريب في الأمر أنَّ الكلاب سكتتْ فجأةً. أصدرتْ في البدء نباحـاً مخنوقـاً ومُتقطّعـاً ثم سكتَتْ.. وعاد عـواء الذئـاب يتواصل حاداً وضاجّاً أكثر ممّا هو متوقّع. لقد بدا الأمر وكأنَّ كلَّ ذلك قد اختار باباً ليعوي إزاءه.

كان هناك صراخ آدميّ وأصوات مكتومة ورصاصات تتساقط خُلَّبـاً وانهزاماً، لا تصـدر الّا صدىً مكتـومـاً ومخـذولاً، وغبـار يَتعاقد..

وعواء يتواصل....

* * *

في النهـار الثاني أحصى النـاس جرحـاهم وسمعوا مَن يقـول بتأكيد حاسم:

«نُشمية بنت الشيخ حسن.. قتلتْها الذئاب!».

بغداد